



مسؤولية طبعه للإستشراق

ساجدة عمر فوزي
العراق

صدر في لندن عن دار راتلج في الشهر الماضي كتاب الاستاذ ادوارد سعيد عن « الاستشراق » . وقد أثار الكتاب حال صدوره ضجة علمية وصحفية سبقها في أن هذا الكتاب يمثل أول مبادرة عربية علمية تتصدى لمعاهد الغرب الفكرية والتي ادعت لنفسها مهمة احتكار تدريس وتفسير وتصحيح أفكار العرب والمسلمين . وعليه فقد شعر كتاب الغرب بالقلق (1) وبأن لديهم أن هذا الكتاب هو بادرة أولية لمثقفي المشرق في محاولة الأخذ بزمام مصائرهم واعادة النظر في تاريخهم وما كتب عنهم .

والاستاذ ادوارد سعيد غني عن التعريف فهو فلسطيني الأصل مقيم حاليا في الولايات المتحدة ويعمل كاستاذ الادب المقارن والنقد الادبي في جامعتي برنستون وكولومبيا . وقد شغل قبل ذلك وظيفة

(1) راجع مراجعة باتريك سيبيل في الاوبزرفر

P. Seal : in the Observer .

استاذ زائر للادب المقارن في جامعة هارفارد • ويحصل رسالة معهد الدراسات البشرية المتقدمة في ستانفورد •

وقد حصل كتاب ادوارد سعيد الموسوم « الاغراض والمقاصد في علم البدايات » الصادر في عام ١٩٧٦ على جائزة لينونيل تريلينك السنوية التي تمنحها جامعة كولومبيا لبحوث الدراسات النقدية •

وكتاب « الاستشراق » يقع في ٣٦٠ صفحة من الحجم الكبير • ويتصدى لبحث المعضلة التالية : —

أولا : ان الاستشراق هو رمز للهيمنة السياسية والحضارية للغرب خاصة وان بدايات «علم» الاستشراق ظهرت وتطورت أثناء الضعف السياسي والحضاي للشرق •

ثانيا : ان الاستشراق هو «تقليد» وليس علم • أو بكلمة أحسن ان الاستشراق يقوم على مجموعة تقاليد رافقت فترات الاستكشافات العلمية والجغرافية وقيام المستعمرات هذه التقاليد التي عززت الطابع العنصري والعداء الديني «للاقوام» (Nations) المستعمرة ••

ثالثا : ان تطور الاستشراق وتحوله على الشكل العلمي النهائي أوقع المستشرقون في مزلق الادعاء بالموضوعية والعلمية التي تفتقرها طبيعة البحوث الاجتماعية • وحتى اذا ما سلمنا بإمكانية التجرد والموضوعية (وهذا مستحيل حيث يقع الباحث الاجتماعي تحت طائلة الالتزام الادبي أو الاستمتاع الشخصي • كما تلعب القيود الاجتماعية والالتزامات السياسية دورا مكملا تمنح مسألة الموضوعية والتجرد التي تتحلّى بها بحوث الكيمياء وسائر العلوم الطبيعية) • فان الاساس

التقليدي لبحوث الإستشراق يتنافى على الإطلاق مع مسألة التجرد العلمي .

ويعود ادوارد سعيد هنا ليؤكد أن التجيز العلمي أو البعد عن الموضوعية هو أمر قد لا يكون سيئا في جميع الاحوال .

ولبحث هذه المقولة ينصب الكتاب وينقسم الى ثلاثة أقسام متبعة التسلسل التاريخي لنشوء الإستشراق : كما يصاحب هذا التحليل التاريخي دراسة نظرية موازية لدوافع الإستشراق . ينتهي في النهاية الى أن الشرق هو جزء اساسي لتراث الغرب المادي وحيث أعطى الشرق للغرب من المقارنة والهوية التفوقية للحضارة الغربية . كما حصر سعيد دراساته على الإستشراق الانكلوت فرنسي والمدارس الإستشراقية الاميركية المعاصرة . وبذلك حرم الكاتب نفسه (وحرّم القارىء كذلك) من فرصة دراسة الإستشراق الروسي والمدرسة الالمانية . ويبرر سعيد هذا (القصور !!) من أن الإستشراق هو وليد علاقة عضوية (اساسها الهيمنة والتسلط السياسي - والحضاري) بين الغرب والشرق . وان مثل هذه العلاقة تنقص الالمان وفقهاء الروس . ولذلك فإن المثال الكامل للإستشراق يكمن في العلاقة البريطانية الشرقية التي سادها جو التملك (فالبريطاني مثلا يعتبر نفسه مسئولا عن تثقيف وفهم السكان المحليين نظرا لكونه السيد المالك) من جهة والعلاقة الفرنسية الشرقية التي تمتاز بالنزعة التصوفية نظرا لعقدة الحرمان التي لاقاها الساسة الفرنسيون أثناء القرن التاسع عشر والتخلي عن «جواهر» الشرق . وبالتالي فإن الفرنسي اوي يعتبر أن دوره في دراسة الإستشراق هو دور الباحث عن الحقيقة وليس غيره .

لقد رافقت حملة نابوليون على مصر من جهة وبدايات الطموح البريطاني في السيطرة على أجزاء الجسم العثماني المريض دعوة لدراسة وفهم طبائع وأذهان وعادات سكان وأجناس هذه المناطق . وبذلك نصب العربي نفسه واليا وشفيعا ليفتي ويتفقه ويكون النظريات حول طبائع السكان .

لقد اقترن الشرق وفكرة الشرق بمفهوم الخطر الاسلامي الداهم ولذلك فان الطابع الدفاعي لهذه الدراسات والحاجة الى الاقتصار والثأر من العرب والمسلمين صبغت تلك الدراسات القديمة وأثرت في تكوين الفكر الاستشراقي الحالي .

وهذا يفسر الهجوم الشرس الذي مارسه كتاب تلك الفترة والذي اقتصر على العرب والمسلمين دون سواهم من شعوب هذه المنطقة .

لقد أورد ادوارد سعيد مقتطفات عديدة جدا من دراسات تلك الحقب وخلص منها الى كيفية صياغة الجذور الاساسية لعلم الاستشراق: ففي « البليوغرافيا الشرقية » لـ داريلو والمنشورة في ١٦٩٧ جاء تعريف الاسلام بما يلي (الاسلام : هو اسم لمدعي النبوة والذي سمي فيما بعد بمحمد وهو مؤلف الهرطقة المعروفة والمسماة باسمه) .

والذي يهم ادوارد سعيد هنا هو أن كلمة المحمديين لم تطلق الا بقصد تجريد الاسلام من أي محتوى والصاقه فيما بعد باسم شخصي . والسبب هو غيظ وكره المستشرقين من ادعاء « شعوب هذه المنطقة » بأي اجتهاد روحي .

لقد تكون الشرق عن طريق خيال الغرب ، منهمم الذين صاغوه

وكونوه وكل ما كتب في تلك الحقبة وحتى بدايات القرن العشرين
انما جاء ليؤكد ويثبت الصورة التقليدية . واذا ما كان هناك اختلاف
بين حقيقة الشرق وما كتب عنهم في الغرب فذلك مرده الى خطأ في
الشرق وليس لسوء فهم الغرب .!! أما اختلاف المستشرقين فليس الا
تأكيدا لماهية وشخصية الشرق .

وعندما زار برتون فلسطين ولاحظ اختلاف الواقع عن ما قرأه عمد
فجأة الى وصف فلسطين بانها المكان الذي يسوده الموت . ان تعريف
الموت هنا يشير الى خيبة برتون في العثور على ما يدل على جمود
المسلمين وتفسخ العرب (المعهود !!) ولذلك وبدلا من أن يقرر
الحقيقة ، عمد هذا الى الرجوع الى ذاكرته وبدأ يصف ويؤكد خيال
الغرب دون حاجة الى فتح عينيه ورؤية الواقع .

لقد انتقل الاستشراق الى مجال البحث (العلمي) في بدايات القرن
الثامن عشر باحد ثلاث طرق :-

١ - الترجمة المباشرة وتصنيف المواد المترجمة ويرجع الفضل هنا
الى سلفستر دساسي الفرنسي وادوارد وليم لين . وساهم الاول في
وضع قواعد اللغة العربية ومؤلفه معروف كما ألف مؤلفات قصيرة عن
«ديانات العرب والدروز» . لقد وصف هذا روعة الشعر العربي بأنه
يقصر عن اللحاق بالتكامل الغربي الذي بلغ من الكمال ذروته .

أما ادوارد لين مترجم كتاب «ألف ليلة وليلة» الى الانكليزية ،
والذي يهم هنا أن هؤلاء باحتكارهم فهم « دين الاهالي » وتمكنهم من
المنطق بلغات مختلفة ركزوا الصورة العنصرية المتخلفة للشرق وأصبح
الشرق ملكا للغرب بصورته النهائية وعند بداية تطور علم اللغة واللفظ

وجد «المستشرقون» في شخص رينان فرصة في تصنيف وترتيب الشرق . وذلك عن طريق ارجاع اللغات الى جذور معينة أولا وربط حضارات الاقوام بتلك الجذور ثم عملية مقارنة مدى وحشية وبدائية هذه الاقوام مقاسة ببدائية جذور لغاتهم خالص في نهايتها رينان الى أن الحضارة السامية تعتبر بدائية جدا اذا ما قورنت بالحضارة الاوروبية . حيث يقول : (ان الفرق «بيننا وبينهم» هو كالفرق بين الصورة الزيتية و «شخايط قلم الرصاص !!»)

وهذا يفسر تقدم موضوع علم اللغات الشرقية في مدارس الغرب .

لقد تركز علم الاستشراق وتطور فبعد أن استخدم تكنيك التحليل اللغوي في تصنيف الاجناس اكتشف الغرب أهمية (علم الجغرافيا في تطبيقه على أقوام المنطقة) وقامت حركة واسعة لمسح الاراضي ووضع الحدود لكل قبيلة وشعب وذلك للحفاظ عليها من الضياع .

ويصف الاستاذ سعيد في الفصول النهائية من الكتاب مهمة المستشرق في انتقاله من دور الباحث العلمي الى دور المستشار الذي يضع علمه في خدمة الامبراطورية ويساهم في استقرار وازدهار المنطقة كما يساعد تجنب «الفتن» في الانتقال من المرحلة الكولونيالية الى الاستقلال الذاتي .

وهنا ينتقل الاستشراق من مرحلة الصراع الفكري والتسلط القبيح الى دور التعاون الودي والدعوة الى فهم « الاسلام » والمسلمين .

لقد لعب كلا من «هاملتون جب» و«ماسنيون» الدور الاساسي والهام في اغناء تراث الاستشراق كما ألفت كتابات هؤلاء حجر الاساس ومصدرا ضخما وقيمة علمية كبيرة جدا .

وبالرغم من ثناء ادوارد سعيد واعجابه بموضوعية هؤلاء وارتياحه لمدى الحب الذي أظهره في دراستهم للاسلام فان له ملاحظات يمكن حصرها بما يلي : -

لقد طبعت دراسات « جيب » وارتبطت بمعطيات السياسة البريطانية كما أنها لم تتخلص من الطابع التسلطي الاستعماري ، كما أن اعتماده على التراث الاستشراقي القديم ربطه بشكل واضح بسلسلة المستشرقين القدامى . ان مقتطفات سعيد عن جب ، وخاصة بالخلاصة التي مفادها عدم صلاحية المسلمين وعقلية الشرق الاوسط للاستفادة من تمدن الغرب وعليه فانه من الخطأ محاولة تمدين المسلمين ذوي العقلية البسيطة ، ترجع الذهن الى الدعوات العنصرية القديمة .

أضف الى هذا ارتباط السيد هاملتون جب بالمعاهد المشبوهة مما يقلل من وثوق وصلابة التزامه العلمي . أما ماسنيون فلم يتخلص هذا من ميوله «الكاثوليكية» التي تتجلى في اصراره على اعتبار العلاج كمسيح جديد بثوب اسلامي ومحاولة المسلمين الى التشبه بالمثل المسيحية في التضحية .

وفي الفصل الاخير تكمن قيمة هذا الكتاب . لقد ابرز سعيد موقف المستشرقين المعاصرين العدائي والمغلف بالطابع العلمي لكل ما هو عربي واسلامي خاصة بعد حرب ١٩٦٧ وظهور العرب كقوة اقتصادية دولية .

ولم يكف المستشرقون - كما يقول ادوارد سعيد - وخاصة برنارد لويس عن الطعن بالاسلام « الاسلام أداة عنصرية » ، والتسخيف بالقيم الحضارية الحديثة « كاصرار لويس على القول بأن الثورة هي من « ثوران وهيجان » التي لها محتوى « جنسي وحشي » . ومهما بالغنا في السرد فلسوف نظل قاصرين عن ابراز أهمية هذا الفصل . خاصة في فضح دور المستشرقين المحدثين أمثال فاتوكيوتوس ولويس في تجريد المفهوم القومي العربي من أي محتوى ومن ثم الانقضاض على الاسلام كرمز وحشي ينبغي تثقيفه . وخير مثال هو ما أورده سعيد (ضمن أمثاله العديدة جدا) حول مفهوم فاتوكيوتوس « بان الثورة العربية هي مفهوم جنوبي تمتاز به الشعوب الجائعة الفقيرة . وان الفكرة القومية المستوردة التي يتبجح بها العرب ما هي الا خطر يهدد كيانهم وصحتهم !! » .

ويخلص الكتاب الى ما يلي : -

١ - انه لا زال التسلط الحضاري قائما بدلالة الاتجاه الثقافي الى الغرب عن طريق المبعوثين والوفود .

٢ - بدأت الآن بوادر الانتقال المكاني للاستشراق الى الولايات المتحدة بعد زيادة عدد طلبة دراسات اللغة العربية والتاريخ الاسلامي الموفدين الى اميركا .

٣ - ان العالم الشرقي لا مكان له في الغرب وأكثر ما يقوم به هناك هو دور المعرف والمخبر تاركا دور البحث والتحري الى سيده العربي .

ان هذا الكتاب جدير بالدراسة وهو ضرورة لكل من يروم الذهاب الى الغرب لدراسة تراث الشرق !!! .